رابعـــاً : القصـــــــص :

يزخر تراثنا الأدبي بنتاج وافر من القصص ، ويعود سبب كثرة هذا النوع النثري الـــــى سببين :

١-طبيعة الانسان العربي المتميزة بسعة الخيال وانطلاقة الفكر وطواعية لغته فـــــي أداء هذا النوع الفني .

٢-**البيئة الطبيعية المناسبة** : إذ كان العرب يتسامرون في الليالي المقمرة ، يســـــردون الأحداث القديمة التي توارثوها عن آبائهم .

وقد وردت هذه القصص بالغة العربية الفصيحة على الرغم من قدمها ، لأنها دوّنت فـــي القرن الثاني الهجري فاكتسبت أسلوب هذا العصر ، إلّا أن حدث القصة ظلّ يحمل طابـــــع العصور القديمة ممّا لا يمكن الطعن بانتمائها الجاهلي ، علماً أن هذه الحالة واردة في جميع الآداب الكلاسيكية النثرية ، وذلك لندرة التدوين ومثال ذلك : الملاحم السومرية ، وملحمـــــة كلكامش فضلاً عن قصص الأنبياء والملوك والأمم الغابرة التي وردت في القرآن الكريـــــم .

ومن المهم أن نشير الى أن مؤلف معظم هذه القصص مجهول ، ومؤلفها هو المجتمـــع آنذاك ، أمّا الذي حملها من جيل الى جيل فهم الرواة ، وأهم رواة القصص : أبو عبيـــــــدة معمر بن المثنى الذي جمع قصص أيام العرب ، وابن اسحاق وابن هشام اللذان اختصّـــــا بالسيرة النبوية فضلاً عن النفضّل الضبّي ، ويونس بن حبيب ، وغيرهم .

أنواع القصـــــص :

١ – **القصة التاريخية** : إن هذا النوع من القصص يسرد السيرة الذاتية للعرب وأحوالهم وكل ما يخصّ شؤونهم ، فضلاً عن أسماء أجدادنا القدماء وانتقالهم من شبه الجزيرة العربية ، وأسماء الغرب البائدة وقصصهم لقوم (عاد وثمود وطسم وجديس) .

ومن القصص التاريخية (أيام العرب) التي تقوم بسرد بطولات العرب وحروبهم ، ومـــــا سجّله أبطالهم من انتصارات ، فقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب الى أن تناولهـــــا رواة القرن الثاني للهجرة فدوّنوها تدويناً دقيقاً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحــه لنقائض جرير والفرزدق . وكانوا يقصّون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنـــة ومـــــن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية وقصة (الزبّاء) ممّا نجده مبثوثاً في تاريـــخ الطبري والسيرة النبوية لابن هشام ، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني .

ومن القصص التاريخية المشهورة قصة بناء قصر (الخورنق) الذي بناه رجل يدعـــــى (سنمّار) للملك النعمان بن المنذر الذي غدر به فيما بعد .

٢ – قصص الأسفار والحروب :

كانت للعرب في جاهليتهم أسفار ورحلات كثيرة تمخّضت عنها حكايات وقصص كثيــرة صوّرت أهوال السفر ومشاق الطريق والمخاوف التي تعترضهم ، ومن أبرز هذه الأسفـــــار رحلة قوافل كسرى التجارية الى اليمن وما تبع هذه الرحلة من معركة سمّيت بـ(يوم الصفقــة) وهو من أيام الجاهلية ، انتقم فيه الفرس من بني تميم لنهبهم هذه لقوافل كسرى .

وكذلك رحلة أبي طالب (ع) الى الشام .

أمّا قصص الحروب فهي أهم من قصص الأسفار ، لأن الجزيرة العربية شهدت حروبـــاً طويلة كحرب البسوس ، إذ تعدّ هذه الحرب –على ما فيها من مبالغة– من أشهر الملاحـــم العربية وقصة حرب داحس والغبراء ، وحروب الأوس والخزرج .

٣ – القصص الشعبية أو (الأساطير) :

الأسطورة : هي قصة خيالية ذات أصل شعبي والاسطورة لها أصل من التاريخ أو من تراث الشعب ، لكن هذا الأصل امتزج بالخيال وداخلته قوى غير مرئية كالجن والشياطين والأمور الغيبية الخارقة والغول ، فضلاً عن قصص الحيوانات الناطقة . إن هذه القصص تمثّل مرحلة متقدمة من حياة الشعوب البدائية .

وقد علّل الجاحظ نشأة الأساطير وشيوعها بقوله : (إن القوم لمّا نزلوا البلاد عملت (أثّرت) فيهم الوحشة والانفراد ... وإذا توحّش الانسان تمثّل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرّق ذهنه .. فرأى ما لا يرى .. وتوهّم الشيء اليسير أنه عظيم وجليل ..) .

هذه هي الأسس النفسية والاجتماعية لأساطير العرب ، ومن أشهر هذه الأساطير ، قصة زرقاء اليمامة ، وقصة لقمان ونسوره السبعة ، ومن هذه النسور (لُبَد) ، الذي بموته مات لقمان بعد أن اختار أن يعيش عمر سبعة نسور وقد ذكره النابغة في قوله :

أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ

أمّا قصة (الحيّة والكنز) فهي قديمة ومعروفة بين العرب ، خلاصتها : أن أخوين نزلا بوادٍ تحميه حيّة رقطاء فنهشت الأول ومات ، فخافت أن يثأر منها الأخ الثاني فاتفقت معه أن تدفع له كل يوم ديناراً ، فلمّا كادت أن تستكمل الديّة غدر بها وضربها على رأسها بفأس ، لكنه أخطأها ... فدعاها الى معاودة الصلح والاتفاق فرفضت الحيّة ذلك قائلة : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك وقبر أخيك . وقد وظّف النابغة هذه الاسطورة في شعره معاتباً (بني مرّة) قائلاً :

وإني لألقى من ذوي الضغن منهمُ بلا عثرةٍ والنفس لابدّ عاثره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكّت الأمثال في الناس ساره

٤ – القصة الاجتماعية :

إن هذا النوع من القصص يختص بحياة الناس اليومية ، في الحب والزواج ، والغنى والفقر ... الخ ، ويغلب على هذا النوع الطابع الشخصي ، لأنها تقصّ وتسرد جزئيات حياة الناس بخلاف القصة التاريخية ، ومن ذلك قصة المرقّش الأكبر وحبه لابنة عمّه (أسماء) التي زوّجها أبوها من رجل مرادي (من قبيلة مراد) ، مستغلاً سفر المرقّش ، فلمّا عاد أخبروه بأنها ماتت ، ثمّ علم فيما بعد بزواجها ، فخرج يطلبها في البلاد الى أن مرض وهو في الصحراء ، فمرّ به راعٍ لزوج (أسماء) ، فأخبره المرقّش بقصته فذهب الراعي اليها حاملاً خاتم المرقّش ، فلمّا علمت بأمره جاءت مع زوجها المرادي وحملاه حتى مات عندها .

من الملاحظ أن القصة الاجتماعية إذا تعرّضت لشخصية ملك أو رئيس فإنها تصطبغ بالموضوعية ، كما هو الحال مع قصة (الحارث بن عوف) الذي يعدّ من سادات العرب ، فبعد أن خطب ابنة (أوس بن حارثة الطائي) ، وأخذها الى ديار قومه ، رفضت العروس أن تقام الولائم ، والعرب تقتل بعضها بعض وذلك في أيام حرب (داحس والغبراء) بين (عبس وذبيان) ، فقال الحارث : إني لأرى همةّ وعقلاً ، فحمل من الديّات ثلاثة آلاف بعير وفي هذه المناسبة قال زهير بن أبي سلمى مادحاً :

يميناً لنعم السيّدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

وهناك أنواع أخرى من القصص كقصص المجون وما يتصل باللهو ومجالس الشراب من عبث ، كقصة (دارة جلجل) التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته ، وهناك النوادر وهي قصص الفكاهة التي يسردها الندماء للملوك ، وهناك الخرافات وهي الأحاديث المستملحة من الكذب ثمّ تطوّرت الى قصص موضوعة على ألسنة الحيوانات ، الغاية منها التربية والوعظ ، وتقديم النصح بقالب قصصي مثل قصة (كليلو ودمنة) .

الخصائص الفنية والموضوعية للقصة :

تتميّز القصة بجملة خصائص فنية نجملها بما يأتي :

- **القدم** : إذ يرى الباحثون أنها سبقت الشعر لأنها لا تحتاج الى جهد فني أو فكـــري .
- **تعبيرها عن الانسان العربي** : استطاعت القصة القديمة على بساطتها أن تكشـــف طباع العرب وأفكارهم وأهوائهم ، وأن تخلق نوعاً من التلاؤم بينهم وبيـــن أســـــرار الطبيعة .
- **المشاركة في صنع القيم** : شاركت القصة الشعر في صياغة المثل العليا ، وتحديـــد القيم ، وتوضيح العلاقات بين القبائل ، وبين الفرد والقبيلة .
- **تصوير البطل الرمز** : إذ اختارت القصة القديمة شخصيات مرموقة جعلتها رمـــــوزاً للفضائل مثلاً : عنترة يصور أعلى درجات الشجاعة ، حاتم يصور غايـــة الكـــرم ، والسموأل يمثّل الوفاء ، وقصة رهن درع امرئ القيس لديه معروفة في التراث الأدبي .
- **بساطة البنية الفنية** : إذ توفرت في هذه القصص أهم عناصر القصـــة من أحـداث وسرد وفكرة وهدف وشخصيات وزمان ومكان ، ومع أن هذه العناصر لم تكن تامّـــة النضج في القصة القديمة ، إلّا أن هذا الأمر لا ينتقص منها كفن كان في بدايـــــة ظهوره .